

العروي يسائل نفسه حول الذات والوطن

مراجعة في كتاب "استبانة"

**Book Review – Laroui Questions Himself about Self and Nation:
A Reading of Istibana**

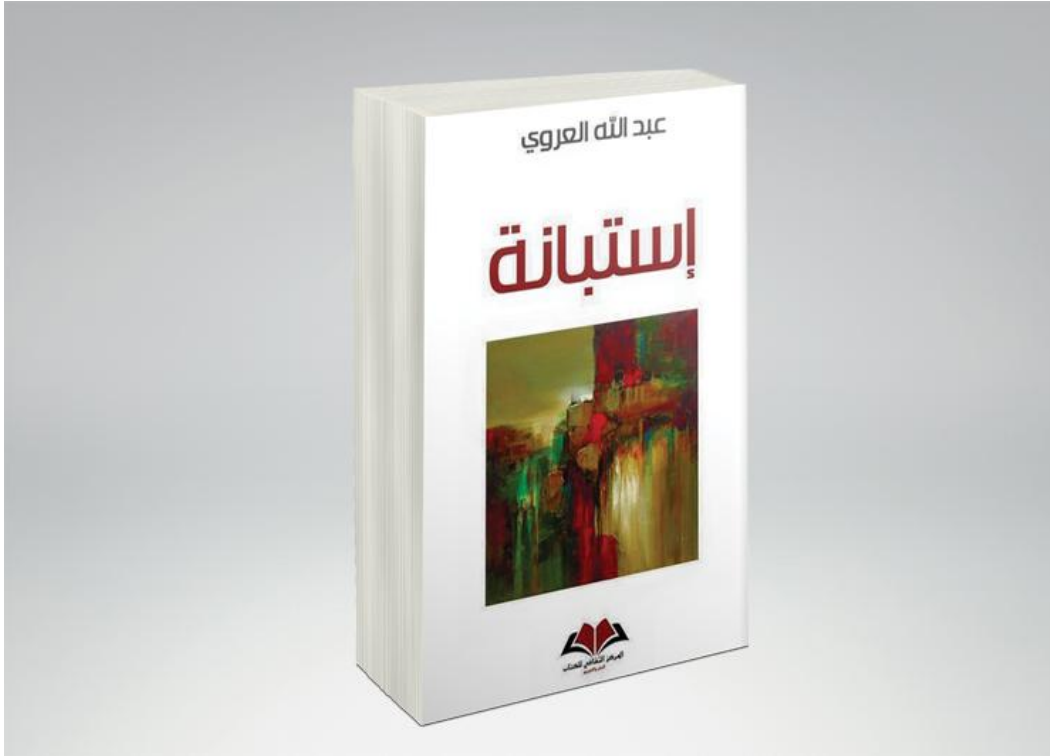
الحبيب استاتي زين الدين

Elhabib Stati Zineddine

أستاذ القانون الدستوري والفكر السياسي، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.

Professor of Constitutional Law and Political Thought, Abdelmalek Essaadi University, Tetouan, Morocco.

الكاتب:	استبانة.
الكاتب:	عبد الله العروي.
مكان النشر:	الدار البيضاء/ بيروت.
تاريخ النشر:	الطبعة الأولى، 2016.
الناشر:	المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع.
عدد الصفحات:	142 صفحة.



لا تحظى كتابات عبد الله العروبي بالمتابعة والاهتمام الأكاديمي بالنظر إلى المواضيع والمفاهيم العميقة التي يختار مقاربتها فحسب، وإنما كذلك بفضل تنوع الطرق التي يسلكها في تصريف اهتماماته الفكرية التي تتجاوز شغفه بالتاريخ الذي يعدّه "قنا قبل أن يكون علما، ورواية قبل أن يكون مقالة تحليلية"¹، لتستدعي السياسة والاجتماع والفلسفة، وغيرها من المجالات الإنسانية التي تسعفه في أبحاثه والإجابة عن تساؤلاته.

ولئن اختلفت إصداراته العلمية، من حيث مضمونها ومنهجيتها؛ فالملاحظ أنها تكاد تنقل حرصه على الكتابة في إطار نسق نظري يتميز، بوحدة المتن والإنتاج الفكري الهادف إلى فهم الذات والواقع، لعلّ من ينتمي إلى العالم العربي يفكر ويتأمل في الوضعيات المحددة لوجوده الفردي والجماعي، على أمل تطويرها، وجعلها تتناسب ورهانات التحديث.

ومن يتابع أعمال العروبي، يعلم أنه، وإن هيمن الجانب التاريخي على العديد من أعماله، قد أنتج، بالموازاة مع ذلك، ودليل على سعة ثقافته واطلاعه، أشكالا مختلفة من الكتابة، منها ما يرتبط بالمفاهيم والرواية. وقد أصدر في السنة الماضية كتابا بعنوان "استبانة"، موضوع هذه القراءة، والذي تميز بالجمع بين مختلف هذه الأشكال. وأي تميّز أكبر وأدوم من حسن التعامل مع المادة والأسلوب؟

لقد سبق للعروبي أن اتبع منهج مساءلة الذات، بصورة مختلفة، عند تحرير "السنة والإصلاح"، و"من ديوان السياسة"، لأنه يفضل أن يحاور نفسه، أن يطرح الأسئلة التي يمكن أن يقترحها الصحفي، ويجب عنها بعد فحص وتأمل، حسب تسلسل التاريخ والمنطق². جاء هذا الحوار الثنائي على شكل مئة وأحد عشر سؤالاً، يطرحها على نفسه، ويجب عنها في آن واحد، في محاولة لسبر أغوار الذات وما يحيط بها، ولا سيما أن مشكلتهما تتمثل في أننا نعتقد بحق أننا على معرفة تامة بهما، والحال أننا لا نعرف عنهما إلا القليل.

يتوزّع هذا العدد من الأسئلة المسترسلة، على تسعة أجزاء متداخلة، تخلو من مقدمة وخاتمة، للتحديث في قضايا تاريخية وفكرية وسياسية، تمتد من ثلاثينيات القرن الماضي إلى ما بعد استقلال المغرب عن الحماية الفرنسية سنة 1956. انطلق الكتاب بالحديث عن الذات، من حيث الاسم والجذور، وخلص إلى تأملات وأسئلة أنطولوجية وإبستمولوجية، جعلته وفيما لأسلوبه في الفحص والتفكيك الدقيقين للمفاهيم، في علاقة بما هو أنثروبولوجي وثقافي وهوياتي.

استهل حوار الذات بالنبش في اسمه الذي يتضايق، كغالب الناس، عندما يسمعه محرّفاً من دون فتح العين وسكون الرءاء

¹ عبد الله العروبي، مجمل تاريخ المغرب (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2009)، ص 13.

² العروبي، من ديوان السياسة (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2009) ص 5.

"العروبي"³. اكتشف لاحقاً وبالمصادفة أن هذا الاسم، إن لم يكن نادراً في المغرب الأقصى، معروف خارجة منذ القدم؛ إذ كان بعض المؤرخين يحملون الاسم ذاته، ومنهم المؤرخ الأندلسي أحمد بن موسى العروبي⁴. بالنسبة إليه يقول العقل: هذه مصادفة، والوجدان يصرُّ على الاعتقاد أن كل شيء مسطر. كيف حصل أنه توجه إلى امتهان صناعة التاريخ؟⁵

تتقطع سلسلة الأنساب عند جدّه الثاني، حيث عرّف نفسه بأنه هو محمد بن عبد الله بن محمد، لأسباب طارئة متعلقة بالثورة التي دفعت والده، بحكم ما جرّته من تخريب وإتلاف، يفرّ بنفسه دون التفكير في جمع وثائقه⁶. وسبق للعروبي أن ذكر في "خواطر الصباح" أنه كان ينوي استجواب أبيه عن أطوار حياته، قبل الحماية وأثناءها، غير أن الأمر لم يتم بعد أن تسلل إليه التراخي. واكتفى بالقول إن والده اشتغل مدة كاتباً لقائد مدينة بئر جديد، وتعلّم القراءة والكتابة على الأرجح بمدرسة تعليم القرآن المتواجدة بدار القيادة. وعلى الرغم من أنه لم يلعب أيّ دور في تربية ابنه وجدانياً، يعترف بأثر تجربته في ميولاته الاجتماعية والسياسية، لأنه لم ينخرط في أيّ زاوية، على عكس أخيه الأمي. أما ما يتعلق بالسياسة، فكان الأب ينظر بواقعية تامة، وكان يرتاح لحكم التاريخ⁷.

³ العروبي، استبانة (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2016)، ص 5.

⁴ المرجع نفسه، ص 6.

⁵ المرجع نفسه، ص 9.

⁶ المرجع نفسه، ص 10.

⁷ المرجع نفسه، ص 14.

وما استخلصه من تجربته اليومية أن تغليب منطق الأسرة، على أهميته اجتماعياً وسياسياً، يؤدي إلى آفات كثيرة؛ في مقدمتها نقشي الرشوة؛ إذ تتوسع الأسرة بسهولة إلى زاوية، فإلى حزب، فإلى تعاونية، فإلى شركة... إلخ⁸.

في الجزء الثاني، اختار أن يوجه لنفسه ثمانية عشر سؤالاً حول التعليم الذي عده أمّ المشكلات التي أخفق المخزن قبل الحماية، وأخفقت إدارة الحماية، ولا سيما الفرنسية، وأخفقت حكومات المغرب المستقل الموحد؛ في تحقيق تصور شامل يحظى بموافقة المجتمع، والأحزاب، والنقابات، وأولياء التلاميذ... إلخ⁹.

فالإرادة السياسية لا تكفي، ولا بد من قناعة بنجاعة الإصلاح وضعف المعارضة الداخلية، وإلا ستتوالى الحلول الجزئية الترقيعية¹⁰، ما دما نعتقد أن التعليم يجب أن يساير التطور، ولم ندرك بعد أن تحقيق هذا التطور نفسه يرتبط بجودة التعليم الذي يتلقاه النشء.

بلغ هذه الخلاصات بعد أن عرّج على أهم محطات تعليمه، ومنعرجات إصلاح التعليم التي ظلت مرتبطة بالمصالح، وهو الذي قضى سنة واحدة في الكتاب، وتكدّب تجربته الشخصية رفض المغاربة تسجيل أبنائهم في المدارس الفرنسية العصرية، وخاصة أن الانخراط في سلك الوظيفة يشترط التخرج من هذه المدارس¹¹. حينها كان مستوى التعليم

⁸ المرجع نفسه، ص 15.

⁹ المرجع نفسه، ص 32.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 33.

¹¹ المرجع نفسه، ص 18.

عاليا، لأن المعلمين الفرنسيين يشتغلون في المغرب، كما لو كانوا يسكنون مناطق نائية من التراب الفرنسي، يعملون الحزم ذاته وب الإخلاص عينه. هذا ما تدرّبوا عليه في معاهدهم التكوينية؛ يعطون لكلمة تعليم معناها الحقيقي، معنى التنشئة والتثقيف¹².

لو أدرك المغاربة قيمة الحزم والإخلاص لما فقدوا استقلالهم، وسمحوا للأجنبي بالتعامل معهم كأنهم قاصرون لم يبلغوا بعد سن الرشد¹³، كان هذا بالضبط الدافع إلى إحداث مقارنات، وإن كانت سلاحا ذا حدين¹⁴، بين المغرب وباقي البلدان، من جهة؛ مثل تركيا أساسا، ثم مصر، وأحوال روسيا قبل وبعد الثورة البولشفية، وحالة إسبانيا المهمة قبل الحرب الأهلية وبعدها، وبين مغرب الحاضر المخجل، ومغرب الماضي الذي يجعل الإنسان يفخر بأجداد الأجداد. بيد أن هذا لا يفيد أبدا التمسك بأطلال الماضي، بقدر ما هو دعوة إلى التجديد، على أمل التخلص من آفات الجهل والغفلة والتوكل بالتسلح بالعلم النافع، لا الإيمان بالشعوذة والخرافات وأسرار الغيب¹⁵. إن التغيير ضروري حتى وإن تعلق باللباس الذي له دلالة رمزية¹⁶ تتجاوز ما هو شخصي وديني، إلى ما هو وطني رمزي، في مواجهة حملة التفرنج؛ أي التشبه بالنصارى. وارتباطا بسياسة التنصير، يرى العروبي أن وضع المغرب لم يكن موافقا

لنهجها؛ فنظام الحماية مبني على تفويض المخزن الذي يتم في حدود واضحة، كما بدا ذلك جليا أثناء أزمة الظهر البربري سنة 1930¹⁷. والواقع أن الفرنسيين، مثلا، وإن عاشوا طويلا، بين أظهر المغاربة، وعاشروهم من شتى الحثيات وتعلموا اللهجات، ظلوا أوفياء لمبدأ "المارشال ليوطي"، أي عزل المدينة الأوروبية الجديدة عن المدينة الإسلامية العتيقة حتى يحصل تساكُن وتجاور، لا تمازج واختلاط ينشأ عنه طمس ومسح¹⁸.

ولإزالة كل لبس بخصوص الشعب المغربي، اتخذ على عاتقه مهمة الحفر في مكوناته ومميزاته، وهي مهمة ليست باليسيرة؛ لأنه شتان بين ما نعلم وما نعتقد. والأغلبية تعتقد قبل أو دون أن تعلم¹⁹. إن الرقعة الأرضية التي نسميها المغرب، من وجهة نظر المؤرخ الذي لا يُرضي قوله إلا المؤرخ أو من له مزاج المؤرخ، لم تكن دائما على صورة ما نراه اليوم. يشير التصور الغالب أنها تمتد من طنجة إلى قلب الصحراء. هذا ما سار على أثره السلاطين الكبار من كل الأسر المتعاقبة على عرش المغرب. وبالطبع كان الأجانب يرون عكس ذلك، ويعتقدون أن المغاربة لم يكونوا شعبا متميزا ولا أمة موحدة، وأنهم كانوا دائما عبارة على عدة قبائل متنافرة²⁰، لتبرير جميع

¹² المرجع نفسه، ص 19.

¹³ المرجع نفسه، ص 35.

¹⁴ المرجع نفسه، ص 37.

¹⁵ المرجع نفسه، ص 42.

¹⁶ المرجع نفسه، ص 45.

¹⁷ المرجع نفسه، ص 47.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 52.

¹⁹ المرجع نفسه، ص 55.

²⁰ المرجع نفسه، ص 56.

أشكال الضغط الدبلوماسي والسياسي، ثم في مرحلة أخيرة لشرعنة التدخل العسكري²¹.

وحتى إذا افترضنا، بحسب العروبي، أن التسيب أو الفوضى لا يعبران عن الضعف الظرفي للسلطة المركزية، ففي الإمكان إيجاد روابط سببية بينها وبين سلسلة من التطورات التي عرفتها البلاد. أما إذا افترضنا أنها لا تعدو أن تكون صيغة للتعبير عن استقلالية القبائل وتشبثها بالعرف وسيرتها الانقسامية، أي أنه تسيب بنيوي، فحري بنا عدّها متتالية رياضية على النمط البراوني *mouvement brownien*، أي حركة اجتماعية أججها الضغط الاستعماري، وكانت ردة فعل عفوية للتركيبة المغربية الأصلية²².

وعطفا على ما تقدم، فالشعب المغربي، كغيره من شعوب الأرض، خليط من أقوام جاءت من الجهات الثلاث، من الشمال، ومن الجنوب، ومن الشرق. وإلى حدّ الساعة لا أحد يعرف بالضبط متى وكيف؟ على الرغم من الأفكار المسبقة التي نحملها جميعا²³. ويلفت العروبي انتباهنا إلى ملاحظة مهمة تتمثل في وجود خلط كبير في هذه المسألة بين مختلف مكونات الطبقة الحاكمة وساكنة المدن وعامة الشعب التي لا يوجد تطابق بينها. ويضيف أيضا على هذه المكونات مكونات أخرى، منها المكوّن المهم والحاسم، والذي هو جزء من

الحياة اليومية، الطقوسية والفنية واللغوية المغربية: المكون الأندلسي، ثم المكون الحرطاني (الأفريقي الأسود)، والمكون اليهودي، وهي مكونات توزعت على المناطق المغربية. لكن يبقى سؤال التأثير هو الأكثر استفزازا، في إطار الحديث عن المكونات؛ إذ يخفي دونية الإنسان الشمال- أفريقي، وعدم توافره على طاقة إنماء الحضارة الإنسانية، بحكم أن معظم شعوب المعمورة تلقّت الحضارة من الخارج. لذلك، يرى مؤرخنا أن حضارة المغرب قادمة من الخارج؛ من الشرق والشمال، هذا في ما يتعلق بالتاريخ القريب، أما ما قبله فأمره مجهول، كما لا يزال مجهولا أصل السكان²⁴. يؤكد لنا التاريخ المعروف أن المغرب كلما فقد استقلاله، أو ضعفت سلطته المركزية، وانقسم إلى دويلات وإمارات (القرنان السابع والعاشر الميلاديان)، انقطع حبل تاريخه²⁵.

وحين يتقدم رائد التاريخانية في مسألتها الذاتية، في الجزء الخامس، يجد نفسه ملزما بطرح هذا السؤال: لماذا أضع المغرب استقلاله؟ رسميا أضع المغرب استقلاله سنة 1912. لكن العروبي يعتبر أن استقلال المغرب كان صوريا منذ أحقاب. وهنا يميّز "بين الاستعمار والقابلية للاستعمار"، أي الاستقلال بالفعل والاستعمار بالقوة. والقابلية للاستعمار هي نتيجة لاختلال في ميزان القوى "نجم عنه انكماش المغرب على نفسه طالبا من الباري أن ينسأه العالم بقدر ما قرّر هو أن ينسى العالم.

²¹العروبي، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2016) ص 467.

²²المرجع نفسه، ص 467 وما بعدها.

²³المرجع نفسه، ص 59.

²⁴المرجع نفسه، ص 62.

²⁵المرجع نفسه، ص 64.

غزا التصوف فؤاد كل مغربي فأثر في سياسة الدولة. هذا مغزى العبارة المعروفة "كم حاجة قضيناها بتركها"²⁶. لربما هي دعوة للتخلص من إرث لم ينتج إلا التخلف والانحطاط متعدد المستويات، كما لو أن لسان حاله يعيد ذلك التساؤل الذي شغله في كتاب "مجمل تاريخ المغرب": "أولاً يوجد في إرث الأجداد ما يجب أن نتخلص منه؟ قد يسأل سائل: ما هو؟ أعترف أن السؤال وجيه، وأن الجواب عنه صعب. لكن أن نتأمل ونسبر أغواره علينا أن نتحقق أن صاحبه جاد غير مراوغ"²⁷.

إن كانت هناك خيانة بالفعل فستكشف عاجلاً أم آجلاً. لكن أي خيانة أهم من جو اليأس الذي عمّ المغرب، منذ عقود، حتى ترسخت لدى الجميع قناعة أن المعجزة وحدها مصدر الخلاص²⁸؟! الواقع أن المغرب شهد عدة مرات خطر الاحتلال الجزئي الذي تضاعف سنة 1830. ربما كانت الحماية الإنجليزية لتكون أجدى وأنفع للوطن من الحماية الفرنسية على كل المستويات، ولا أدل على ذلك من سياسة الأعيان والعمل تحت راية المخزن التي استلهمها "ليوطي" من مبادئ السياسة الإنجليزية²⁹. وخلاصة القول إن الحماية، في نظره، تستحق أن تُتعت بالإصلاحية لو سبق إصلاح المحيط المادي إصلاح أدبي يقوم به أبناء البلد، وإن كان هذا

التوافق العضوي غير مألوف في مجرى التاريخ³⁰.

وقد يتساءل المهتم بمشروع العروبي إن كان بإمكانه أن يفهم حوار حوله الوطنية بمنأى عن ثلاثة أعمال تؤصل لهذا المفهوم، وهي **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، والإيديولوجيا العربية المعاصرة، ومجمل تاريخ المغرب**. ف"استبانة" تشكل امتداداً طبيعياً لهذه المحاولات، ويمكن أن تكون استفساراته توجيهها للمتلقي لعله يتبين الغاية من مختلف تلك الإنتاجات السابقة عن هذا العمل.

ولأننا ندرك عمق كتاباته واختياراته الذكية، فلن نجازف بالجواب، وسنكتفي بترديد التعريف الذي خصّ به الوطنية بوصفها، مبدئياً، شعوراً وسلوكاً وتطلعاً. الشعور هو الاعتزاز بالذات والأجداد. السلوك هو الإيثار، والتطلع هو طلب الحرية والتقدم والرفاهية³¹. والأقرب إلى فهم المؤرخ هو أن الوطنية والمقاومة حركتان مختلفتان، لا بالنظر إلى الوسيلة وحسب- الحرب أو السياسة- بل بالنظر إلى المغزى والهدف. المقاومة المسلحة المرتبطة حقاً بالوطنية هي المولية لهذه، تلك التي اندلعت سنة 1954. أما المقاومة السابقة فإنها تنتمي إلى مجال نظري مغاير تماماً لمجال الوطنية العصرية³². والنتيجة التي توصل إليها كمؤرخ، نتيجة لا تلزم غير المؤرخ، هي أن ميزة الوطنية في أهم فتراتنا هي أنها

²⁶المرجع نفسه، ص 71.

²⁷العروبي، تاريخ المغرب، ص 652.

²⁸المرجع نفسه، ص 74.

²⁹المرجع نفسه، ص 78.

³⁰المرجع نفسه، ص 81.

³¹المرجع نفسه، ص 83.

³²المرجع نفسه، ص 85.

إفراز للمخزن أي الدولة المغربية العتيقة، من دون أن يمثل المغرب، بأي شكل، استثناء³³.

وبسبب ندرة الوثائق المكتوبة، في مجتمع تطغى عليه الأمية، يقترح الاستظهار بغير المكتوب والمسجل لفهم الحركة السياسية والثقافية سنة 1930، ودرجات تأثيرها بالشرق أو الغرب، وإن كان يحيط بمسألة التأثير التباس كبير. وينتقل العروبي، بعد ذلك، إلى ما كشفته أزمة الظهير البربري بشأن حقيقة القوة التي لا يزال المخزن يمثلها. ورمز المخزن هو الملك، وهذا كل سنة بخطابه وسلوكه³⁴. وتأتي الأزمة الاقتصادية التي عرفت أوجها في المغرب سنة 1936 و1937 لإبراز المشكل الحقيقي الذي لم تستطع فرنسا التغلب عليه، من جهة، وظهر جليا أن المقيم العام عاجز عن تدبير شؤون الجالية الأوروبية المتنامية والإصغاء لمطالب الأهالي، ثم التصرف بحرية في محميته لمواجهة الطوارئ، من جهة ثانية³⁵. لذلك، فمن يقول بإلغاء دور المخزن باعتباره مجرد دمية في يد إدارة الحماية، من خلال استلهاهم تجارب (تونس، مصر، الهند، إلخ)، لا يعرف جيدا المغرب؛ فالمخزن شبح، لكنه شبح والد "هامليت" يسيّر حركات الأحياء³⁶.

ينبغي أخذ هذا المعطى في الاعتبار في أي محاولة لتحديد العوامل الأساس في تحقيق استقلال المغرب، مع قلة عدد المقاومين،

وانقسام الحركة الوطنية، وضعف خبرة رؤسائها... إلخ. إن الاستقلال يشكل، في رأيه، معجزة بالنسبة لدولة كانت آخر المستعمرات الفرنسية، وأول من حازت حريتها، وهو ما لم يهضمه البعض³⁷. لكن بما أن لفظ استقلال "بوليسيمي" polysémique، يمكن القول إن الحركة الوطنية المغربية حققت هدفها الرئيس بفسخ عقد الحماية، وفي الوقت ذاته لم تحققه بالإعلان هذا الاستقلال؛ إذ لا يزال الفرد المغربي يعاني من آلام الفقر والجهل والمرض³⁸. قد يبدو هذا الأمر عاديا ومتوقعا بعد بضع سنوات من جلاء المستعمر، بيد أن هذه الفكرة الجاهزة سرعان ما تصطدم بتساؤل عميق: هل هو قدر محتوم؟ أليس من حق جيل الألفية الثالثة أن ينعم بالعلم النافع والصحة الكافية في ظل بلد يتغنى بالاستقرار والاستمرارية؟

قد يصح القول إن وعي الشباب المغربي اليوم عال من الوجهة التقنية، واطىء من الوجهة التاريخية والسياسية، لكن عقولهم ونفوسهم تواقفة لوطنية يكون المواطن غايتها وأساسها. لذلك ربما أصاب العروبي بقوله في ثنايا أجوبته الختامية: الوطنية ضرورة لا يمكن إهمالها أو تجاوزها، لكنها بالتعريف متخلّفة عن الواقع³⁹.

³³المرجع نفسه، ص 90.

³⁴المرجع نفسه، ص 105.

³⁵المرجع نفسه، ص 108.

³⁶المرجع نفسه، ص 112.

³⁷المرجع نفسه، ص 126.

³⁸المرجع نفسه، ص 131.

³⁹المرجع نفسه.

المراجع

العربية

- العروبي، عبد الله، استبانة. الدار البيضاء/ بيروت: المركز الثقافي العربي، 2016.
- _____ .الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912، تعريب محمد حاتمي ومحمد جادور. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2016.
- _____ .مجلد تاريخ المغرب. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2009.

الأجنبية

- Abdellah Laroui. **Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)**. Paris: François Maspero, 1976.